ذكريات علي الطنطاوي
نظرة عامّة

أولاً: قصة الكتاب:

ذكريات علي الطنطاوي هو آخر كتابٍ ينجزه الطنطاوي قبل أن يدخل معتزله الفكري ويدع الكتابة تماماً. وقد كان الكتاب حُلماً من أحلامه الأدبية القديمة، وقد تمنى لو قايضه بجميع كتبه وماله من شُهرة، وما ذلك إلا أنه سيكون شاهداً منصفاً قريباً على الكاتب وعصره ومجتمعه، ومبرزاً كل عمل جليل أقدم عليه، وحافظاً لكل جهد بذله في مناحي الحياة خاصة وعامة.

حرص الطنطاوي على أن يستوعب الكتابُ سيرتَه الذَّاتية؛ لأن الكتاب في المقام الأول ذكرياتٌ تخص الطنطاوي، وليست ذكريات عن عصره أو بيئته أو مجتمعه. تحدث في الكتاب عن:

– طفولته المبكرة وصباه.

– وعن والده ووالدته، وأسرته الصغيرة الأولى التي وجد نفسه فيها، ثم أُسرته الثانية التي كونها، وعن نسبه وأصله وعراقة أُسرته في العلم والأدب سواءً من جهة والده وجديه: أحمد، ومحمد الطنطاوي وأعمامه، أو من جهة والدته التي كانت من أسرة آل الخطيب وخاله الأستاذ محب الدين الخطيب.

– وتعليمه الذي بدأ بتجربة مُرَّة له في الكُتَّاب، ثم تعليمه الأولي والثانوي وفي مرحلة البكالوريا، حتى تخرجه في كلية الحقوق، والصعوبات التي واجهها في سبيل إكمال تعليمه، وكسب عيشه وتعليم إِخوته وكفالتهم بعد أن توفي والده وهو في مطلع السابعة عشرة من عمره.

وتحدث الطنطاوي عن اشتغاله أثناء تعليمه النظامي وبعده بالتدريس وبالتجارة وبالمحاماه وبالقضاء، ثم انتقاله إلى العمل مستشاراً بمحكمة النّقض بالجمهورية

العربية المتحدة، ثم قدومه إلى المملكة العربية السعودية، وعمله أولاً في (الكليات والمعاهد – بالرياض) [1] ثم انتقاله إلى مكة المكرمة وعمله في كلية التربية مدة من الزمن، ودوره في إنشاء أول قسم للدراسات العليا في المملكة العربية السعودية، وإشرافه على بعض الرسائل العليا ومشاركاته الإذاعية والتلفازية، وصِلاَتِه ومعارفه ومكانته بين الناس في وسطه الاجتماعيّ الجديد، وعناية ولاة الأمر حفظهم اللّه به وبأسرته خلال فترة إقامته في المملكة العربية السعودية، ثم تفضيله للبقاء في المملكة، وحمل جنسيتها لمَّا مُنِعَ من العودة إلى بلده الأُم سوريا.

– وخلال هذه الرحلة الطويلة من حياته، لم يغفل مشاركاته في النضال العربي ضد الاستعمار الغربي في سوريا وغيرها من البلاد العربية كالعراق والجزائر وفلسطين، ورحلاته التي جاب فيها كثيراً من المدن والبلدان الإسلامية كالباكستان وأندونيسيا والهند؛ للتعريف بالقضية الفلسطينية وطلب العون من المسلمين، وشرح أبعاد المأساة التي نزلتْ بهذا القطر الغالي قبل أن تنتشر وسائل الإعلام والاتصال على هذا النحو من القوة والانتشار. وتحدَّث عن إسهامه في التوجيه والإصلاح والتربية في مجتمعه وبيته ووقوفه في وجه الدعوات التغريبية لإخراج المرأة العربية المسلمة من حجابها وحيائها، وانتدابه لوضع أول مشروع في الوطن العربي لقانون الأحوال الشخصية، ودعوته المسلمين علماء وقادة وشعوباً إلى الوحدة والتضامن وتقريب وجهات النظر فيما بينهم مهما اختلفت بينهم الفروع، وتحدث عن الوحدة مع مصر أيام جمال عبد الناصر وفرحه بها ابتداءً، ثم دعوته إلى الانفصال عن مصر لما رأى من انتشار كثير من المفاهيم التي لا يرضى عنها، وأثر هذه الدعوة في القضاء على الوحدة بين مصر وسوريا، وأخبار ترشيحه نفسه للانتخابات عام ١٩٤٧م.

– وعرض لمشاركته في الصحافة العربية في الشام ومصر والعراق والحجاز واحترافه للعمل فيها مدة من الزمن، وانضمامه إلى كُتاب (الرسالة) في وقت مبكر جداً من ولادتها، وَتَسلُّمه الإشراف عليها وتحريرها فترة من الزمن مع وجود كبار الكتاب من أبناء بلدها كالعقاد والرافعي وطه حسين، وإصداره لمجلة البعث الإسلامية.

---

(١) نواة جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية الآن.

– ووقف على أعماله الأدبية ومعاركه مع المعاصرين، وجهوده الفكرية المختلفة وألمح إلى تطور أساليبه، وأورد نماذج منها تسهل على الباحث أمر الوقوف عليها والإلمام بمراحلها المختلفة.

– وأبرز للقارئ ثقافته التي حصلها، واهتماماته العلمية وقراءاته، والمؤثرات في توجيهه الأدبي والديني، وأثر حلقات الجامع الأموي، وجلسات مشايخه الخاصة، والحلقات التي كان يعقدها والده الشيخ مصطفى الطنطاوي للتدريس في منزله، في تفتح ذهنية الفتى الصغير على مجالس العلم.

– وقدَّم صورته في صباه وفي شبابه وفي شيخوخته وفي لهوه البريء وجِدِّه، وفي قوته وضعفه، وصوابه وخطئه، وفي حياته الصاخبة وصراعه مع نوازع الخير والشر في داخله، ومع القوة المقاومة في خارج ذاته، وفي حياته الهادئة المطمئنة ومسالمته لمن حوله، وفي حال انتصاره وفرحه وهزيمته وحَزَنه، وفي حالة إقامته بين أهله وطلبته، ومحبيه ومناصريه، وفي حالة ضعنه وانفراده وغياب الناصر والمعين والمشجع.

– وحياته داخل منزله وأساليبه في خطاب بناته وتربيتهن ووعظهن وتعليمهن، وغرس قيم الحق والخير والجمال في نفوسهن وكيف رعى مواهبهن.

– وكان يخرج من كل ذلك ليلقي بالموعظة الخفيفة، أو يلفت الانتباه إلى خطأ شائع، أو يسوق فائدة من الفوائد لا يجمعها فنٌّ بعينه، أو يلتمس العبرة الخافية من أكثر الأحداث عادية؛ فيستخرجها كما تُسْتَخرج الجوهرة من أكوام التراب؛ ليجعل من كل ذلك ذكرى باقية ودرساً وعبرةً، ومتعةً فنيةً ينتصر فيها الحق بكل واقعية (وبساطة) على الباطل، وتُشَوَّهُ فيها الرذيلةُ والمعصية.

وكان في معيَّة ذلك جميعاً يتوسع على طريقته في الاستطراد وحب الاستقصاء؛ فيمهد لبعض ما يذكر بشيء من الخلفيات التاريخية أو العلمية، وينقل لنا مشاهد مما حوله ملتصقة أشد الالتصاق بما ينقله لنا من صور ذاتية، ويؤرخ لبعض الأحداث التي اتصل بها مباشرة أو قاربها من وراء حجاب، ويقدم في ذكرياته شهاداته على: أحداث، ومعتقدات، وشخصيات، وحركات، وتنظيمات، وأفكار دون أن ينسى أنه لا يسجل تاريخاً فيه الشمول والجمع والإحاطة والاستقصاء والتحليل والتفسير والتمحيص، بل يقدم صورة تطول أو تقصر

للأحداث كما هي منطبعة في نفسه، فيصف أثرها قبل أن يصف وقائعها وحوادثها، فهي: وثيقة شخصية قبل أن تكون وثيقة تاريخية. لكنها مع ذلك شاهد من شواهد التاريخ على مرحلة خصبة من مراحل تكوّن العقل العربي، وحين تخرج عن حدود الأدب إلى الوقائع والأحداث والمعتقدات والحالة الفكرية والاجتماعية، فإنها تقدم شهادات بخصوصها تصلح أن تكون وثائق تاريخية لهذا القرن حين تقابل بغيرها، ولكنها تكتسب أهميتها التاريخية من الخصوصية التي يتمتع بها كاتبها، فهو ليس رجلاً عامياً عادياً ولا رجلاً مغامراً قذفت به السياسة إلى أعلى مراكزها، ولكنه مفكر وأديب وفقيه ذو بصر بالتاريخ، ومعرفة بالحضارات وقدرة على تحليل الظواهر واستكناه ما وراءها واستشراف ما يأتي بعدها، ثم هي من رجل انتفت عنه إلى حد كبير تهمة التزوير والغرض والهوى والتحامل؛ لما عرف عنه من النزاهة والتقوى والحرص على الحق وحب الخير لبني الإنسانية من كُلِّ لون وجنس.

أما **قصة الكتاب**: فتعود جذورها إلى رغبة قديمة جاشت في نفس الطنطاوي، وتمنى أن يتنازل عما حققه من مجد أدبي وشهرة، وما أَنجْزه من كتب ومقالات مقابل أن يرزقه اللَّه من الوقت والجلد ما يعينه على أن يشرع في تأليفه وتمامه[1] تلبية لتلك الرغبة.

ومضت السنون والطنطاوي يتشاغل عن هذا الأمل بدروسه وتأليفاته ومحاضراته ومشاركاته في المجتمع والإعلام، ولكنه لم ينسهُ ولم تمت الرغبة في صدره حتى جاءه فجأة الأستاذ زهير الأيوبي يريد أن يحمل عنه ثقل ذكرياته ويحفظ له وللتاريخ ما بقي من نفيس مقتنياتها، وينقذها من براثن النسيان وعبث الزمان، وما زال به يسد عليه المهارب، ويمسك بأدبه ولطفه وحسن مداخله لسان الطنطاوي عن التصريح بالرفض؛ حتى استفاقت الرغبة الهاجعة بين جنبيه، وقَبلَ أن يُجْلِس إليه أحد المهتمين بها من الكتاب، وهو الأُستاذ إبراهيم سرسيق؛ فيسمع منه ثم يكتب له سيرته. وقد باشر الأستاذ إبراهيم سرسيق كتابة ذكريات الطنطاوي فعلاً ونشر منها حلقتين في مجلَّة (المسلمون) تحت اسم (مذكرات الشيخ علي

---

(١) ينظر: علي الطنطاوي: تعريف عام بدين الإسلام: ٤-١٥.

الطنطاوي)[١]. ولا أشكُّ في الجهد المبذول من قبل الأستاذ سرسيق لتقديم الحلقتين؛ لأنه ليس من الميسور أن تأخذ من رجل كالطنطاوي ما تريد من المعلومات دون أن تغرق في بحر لُجيٍّ من مفاكهات الشيخ ومعابثاته واستطراداته اللغوية والشرعية والتاريخية، وتتداخل بين يديك كثير من الوقائع بالأُمنيات والآمال. لذلك حسم الأستاذ سرسيق هذه الإشكالية بذكاء حين بنى ما أسماه: (مذكرات الشيخ علي الطنطاوي) على هيئة وحدات نثرية مستقلة متجاورة، تأخذ إلى حد بعيد استراتيجية (الحوار) أي أنه يثيرها ويوجه إليها ويفصلها عن بعضها أَسْئِلَةٌ ضمنيَّة أو واقعية.

والذي يظهر أن الطنطاوي لم يرضَ عن لغة (المذكرات)[٢] التي اتسمت بالجفاف، والمحافظة على نص كلامه الشفاهي بعد تشذيبه وتنقيته من الاستطرادات والنتوءات. كما لم يعجبه – فيما يبدو – طريقة البناء (التحاورية) – إذا صح هذا الوصف – ولعله كان ينتظر أن تؤدى بلغة أدبية (حرة)، يستلهم فيها المكلف بالكتابة مضمون الحوار، ولا يتقيد بنصه، وأن يُبنى في صورة أكثر تعقيداً مما هو عليه؛ كأن يكتب في شكل قصة تطول أو فصول تتصل بحيث تستوعب حياته جميعاً ويتوفر فيها عنصرا التشويق والحيوية، أو لغير ذلك من الأسباب، والمهم في الأمر: أن الرغبة لدى الطنطاوي قد استفاقت من جديد فعزم على أن يريح نفسه ويريح القارئ من الواسطة ويباشر الكتابة بنفسه، يقول:

«اتفقنا على أن أحدث بها أحداً من إخواننا الأدباء، وهو يكتبها بقلمه واخترنا الأخ العالم الأديب إبراهيم سرسيق فسمع مني، ونقل عني، وكتب حلقتين كانتا من براعة الاستهلال لهذا الكتاب. وما قَصَّرَ – أحسن اللّه إليه – بل لقد تَطوَّل

---

(١) نشرت الحلقتان الأولى والثانية في العددين: الرابع بتاريخ الجمعة ٢٤ محرم ١٤٠٢هـ الموافقة ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١م والخامس بتاريخ الجمعة: ١/صفر/١٤٠٢هـ الموافق: ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١م. وقد اعترض الطنطاوي على هذا الاسم (مذكرات) عند بداية كتابته الفعلية منذ العدد السادس من (المسلمون) واختار مصطلح (ذكريات) لا مذكرات.

(٢) قلت (المذكرات) باعتبار الاسم الذي نشرت تحته أول الأمر، حين كان يتولى كتابتها، ونشرها الأستاذ سرسيق، ينظر: مجلة المسلمون: العدد الرابع والخامس في يوم الجمعة ٢٤ محرم ١٤٠٢هـ، و١ صفر ١٤٠٢هـ.

وأحسن وأجمل، ولكن لا يحك جلدك مثل ظفرك؛ فكان من فضله عليّ أن أعاد بعض نشاطي إليَّ فبدأت أكتب...»[1].

قرر الكاتب المعتزل – إذن – أن ينزل أو يصعد – إذا شئت – إلى ساحة الأدب باسمه من جديد عارياً من كل حجاب أو وساطة، كما كان اسمه ملء سمعها وبصرها في شبابه، وبَعَثَ قلمه من سباته من جديد، وقذف به مباشرة في مواجهة صعبة مع نفسه، التي رَكَنَتْ إلى معتكفها وما تقدمه من نصائح وتوجيهات، أمام القارئ الذي ينتظر منه أن يعيد إليه ذلك الأُسلوب الطنطاوي، الذي عرفه عنه في (الرسالة) و(الثقافة) و(الأيام) وغيرها، والذي يقطر حلاوة وسلاسة ونداوة، ويكاد من فرط حيويته ونشاطه يُساقط ثمراً جنياً يجمع بين الجمال والسهولة وقرب المأخذ وبديع التأليف. ولذلك خشي الطنطاوي من أن يرسب في الامتحان وحق له ذلك فليس ذهن الكاتب اليوم، الذي يلح عليه هاجس الموت في كل مشهد من مشاهد الحياة، كمن يطير إلى المستقبل دون هَمٍّ ولا خوفٍ، وليس من يكتب اليوم وقد خمد في نفسه بريق الشهرة والمجد الأدبي، كمن كان يوماً يتصيد الصورة واللفظة من مئات المعارض، ويبيتُ يجافي جنبه الكرى شوقاً وحرصاً على نشر مقال أو تشذيبه، وتشرق نفسه لكل بارقة من بوارق الجمال في وجوه البشر أو صفحات الكون، وتتعطش إلى كلمات الثناء والتقدير والتشجيع، كما تتعطش التربة الظمأى إلى صوب السماء، يقول الطنطاوي:

«لو جاءاني من أربعين سنة وأنا في مثل سنهما لما قدرا عليّ، ولو كانت هذه الكتابة يومئذ لكتبت غير هذا الذي أكتبه الآن. كنت أغرف من بحر وأنا اليوم أنحت في صخر. كان الفكر شاباً فشاخ، فمن قال لكم إن الفكر لا يشيخ فلا تصدقوه. كان قلمي يجري على القرطاس كفرس السباق لا أستطيع أن أُجاريه، فأمسى كالحصان العجوز أجرُّهُ فلا يكاد يُجرُّ.

كانت المعاني حاضرة، والقلم مستعداً ولكن الصحف مفقودة أو قليلة، وكنا نكتب بلا أجر فلا نجد من ينشر لنا، فكثرت المجلات وزادت الأجور، ولكن كلَّ الذهن، وثقل القلم وضعفت الذاكرة. كُنَّا جياعاً فقدنا الطعام، فلما حضر الطعام فقدنا الشهية!! كنت كمن أقام مصنعاً، جلب له أحسن الآلات، وشغّل فيه

---

(١) الذكريات: ١/٥–٦.

أقدر العمال، وأخرج منه أجود المنتجات فلم يجد لها شارياً، ومل الانتظار فباع البضاعة جزافاً، وسرَّح العمال، وباع الآلات.. فأقبل عليه الشارون وتواترت الطلبات»[١].

لقد كان يستشعر صعوبة العودة إلى الماضي، الذي استحال اليوم بأفراحه وأتراحه إلى قطعة شهيّة من الذكرى العذبَة، أو إلى فترة بهيجة كلها ربيع وسرور، كذلك تبدو لناظريه الآن: متعة داخل متعة، لم يكن قد فطن لها بحكم طبيعة اجتيازه لها، وما يكتنفها من ترقب وأمل، وصراع وكفاح، فهل ينجح اليوم وهو يستعيد تلك اللحظات في خريف العمر؟! هل في مقدوره أن يعاود نفخ الحياة فيها كما هي، دون مبالغة وشوق، أو ضعف وجمود؟!

«... يريد أن أصف عرس الربيع وأنا في مأتم الشتاء...

كان لي بالأمس قلبٌ فقضى وأراح الناس منه واستراح

لقد قضى، فهل رأيت ميتاً عاد بعد ما مات؟ هل أبصرت في سنة واحدة تعاقب ربيعين؟ هل سمعت بإنسان عاش شبابه مرتين؟ كنت إن برقت لي بارقة من جمال في وجوه البشر، أو صفحات الكون أحسست بالعاطفة تشتعل في صدري، والمشاعر تلعب بشغاف قلبي، فأفزع إلى القلم لأسجل ما حسستُ به، فيسابق قلمي فكري. وإن قرأت أخبار الوفاء أو الغدر، أو سمعت أنباء الخير والشر، شعرت بالأفكار تقرع جوانب رأسي، فأُسارع إلى القلم لأقيدها. وإن صافح سمعي أبيات من شاعر ينظم حبات قلبه عقود بيان، أو نغمات من مغنٍّ يصوغ عواطفه طاقات من ألحان هزتني فهزت قلبي. أسمع المغني في هدآت الليل يقول: (آه) فأُحس أنه يوقظ نائم الأشجان في كل قلب عاشق هيمان، أو مفجوع أسيان، حتى يقول معه (آه) يقتلعها من أعماق فؤاده. وإن نادى: (يا ليل يا ليل) أصغى إليه الليل وتوقف يستمع فما يسير، وتأخر الفجر واستمهل حتى يفرغ من نداء الليل، كان كل ما أرى، وكل ما أسمع يجعلني أكتب، أقوم من منامي وأكتب، وأقف على جانب الرصيف لأكتب، ولطالما كتبت المقالات والقصص على حواشي الجرائد وعلى كيس البقال... فلماذا لم تلقني يا أستاذ زهير في تلك الأَيام؟ يا أسفي على تلك الأيام! لماذا لم تأتني وقلبي شاب، وذهني حاد وذاكرتي قوية، وهمتي لا يقف أمامها شيء؟ لماذا..؟

---

(١) السابق: ١٦/١.

الآن يا أُستاذ؟ بعدما جف القلم، وطويت الصحف، ونسيت الوقائع، وخمدت نار الحماسة وسكنت إلى عزلتي، جئت تدعوني أن أملأ بالمداد قلماً ما عاد يصلح للكتابة، وأنشر صحفاً بليت واصفرت من طول الإهمال؟ ولئن قدرتُ على هذا ففعلته فمن لي بأن تتقد بين جوانحي النار التي خمدت وتبعث في نفسي الحماسة التي ماتت؟ أبعد ما ولّى الربيع، وصوَّح النبت جئت تطلب مني الزهر؟ من أين آتيك باللبن وشاتي قد جف ضرعها؟ أين مني الزهر وروضتي قد يبس زرعها؟ على أني لا أيأس، فلا يكلف اللّه نفساً إلا وسعها فاقبل مني ما عندي، فهذا هو اليوم غاية جهدي»[1].

وهكذا بدأ الطنطاوي كتابة ذكرياته منذ العدد السادس من مجلة (المسلمون) بتاريخ الجمعة: ٨ صفر ١٤٠٢هـ، وله من العمر خمس وسبعون سنةً هجرية تحت اسم (ذكريات الشيخ علي الطنطاوي)[2]، واستمر في ذلك حتى توقفت (المسلمون) عن الصدور لظروفها المالية، ثم تحول منذ الحلقة رقم: (٣٨) إلى (جريدة الشرق الأوسط) بطلب من القائمين عليها، وظل يكتب فيها ذكرياته أسبوعيًّا. وقد توقف الكاتب نهائياً عن الكتابة وله من العمر إحدى وثمانون سنة بعد أن جاوز المنشور من حلقات ذكرياته: (٢٤٤) حلقة؛ كتبها على مدار سبع سنوات تقريبًا، وأعلن في خاتمتها أنه قد عزم على أن يطوي أوراقه ويمسح قلمه ويأوي إلى عزلة فكرية كالعزلة المادية التي يعيشها[3].

وأثناء ما كان الطنطاوي يواصل نشر ذكرياته كان الأُستاذ نادر حتاحت صاحب دار المنارة يعمل على نشر ما أنجزه الكاتب؛ فأصدر الأجزاء الأول، والثاني،

---

(١) السابق: ٢٦-٢٨.

(٢) نشرت ذكريات الطنطاوي كتابةً بيده ابتداء في مجلة "المسلمون" وجريدة "الشرق الأوسط" على مدى سبع سنوات بعنوان: "ذكريات الشيخ علي الطنطاوي"، ولكنه أصر عند نشرها في كتاب على تجريد اسمه من لقب الشيخ تواضعاً وزهداً في الألقاب كعادته فنشرت في أجزائها الثمانية تحت عنوان: "ذكريات علي الطنطاوي". وقد أنكر الداعية العراقي الشيخ محمد محمود الصواف -رحمه اللّه- على الطنطاوي ذلك، ولكن الطنطاوي لم يتراجع عن رأيه، ذكر لي ذلك الأُستاذ نادر بن تيسير حتاحت، صهر الطنطاوي والمفوَّض بطباعة كتبه ونشرها. (مكالمة تليفونية مع الأستاذ نادر بن تيسير حتاحت بتاريخ: ١٤١٦/٧/٢٧هـ).

(٣) ينظر: الذكريات: ٨/٣٤٠.

والثالث، والرابع، والخامس، والسادس، قبل أن يستكمل الكاتب تدوين ذكرياته، ثم أصدر بعد توقفه الجزأين المكملين لما تبقى: السّابع والثامن. ولاشك أن الإقدام على نشر الكتاب قبل أن يكمل الكاتب إنجاز مادته كاملة، قد فَوَّت عليه فرصةَ مراجعتها وتنظيمها، لأنه لم يتيسر له أن يشاهد جميع الحلقات فيجمع في سياق واحد الحلقات المتناثرة منها في الموضوع الواحد أو في الفترة الواحدة، التي كان قد فصل بينها في أثناء كتابته للصحيفة؛ تبعاً للظروف والمناسبات، ويُلحق الحلقات المقحمة أو التي من قبيل الاستطراد بموضعها مكاناً وزماناً، أو يُرجئُها إلى آخر الذكريات لتكون بمنزلة الملاحق أو التوضيحات أو التعليقات على ما تقدم.

وقد صدر الجزء الأول والثاني في عام ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، وصدر الثالث والرابع في عام ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م والخامس والسادس في عام ١٤٠٧هـ/١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م وصدر السابع والثامن في عام ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م أي أنه استغرق جمعها ونشرها في كتاب خمس سنوات كاملة.

ويعتقد الباحث أن العمل على ترتيب الحلقات ممكن الآن إلى حد كبير، وتصور ذلك واضح تماماً في ذهنه، ويقطع على نفسه التزاماً للشيخ وللقائمين على إصدار كتبه بالعمل على ترتيبها، متى ما طلبت منه دار المنارة ذلك. ويعتقد الباحث أن تَصوُّره هذا كافٍ لينفي عن الذكريات كثيراً من الاضطراب ويمنحها شيئاً كبيراً من الترتيب المنطقي.

ثانياً: أهميتها:

أما أهمية الذكريات فإن الباحث لا يبالغ في القول: إنَّ ذكريات علي الطنطاوي لو رزقت شيئاً من التنظيم والترتيب إبان كتابتها، والجلد في مراجعة ما كُتب منها وإعادة ترتيبه وتنسيقه قبل تسويقه للقارئ في كتاب لجاءت من أهم وأجل الكتب الأدبية في مجال أدب البحث عن الذات خلال هذا القرن، ومع ذلك فهي من الأهمية بمكان، وتكمن أهميتها من وجهة نظر الدارس في أربعة جوانب أساسية:

أ) البعد الإنساني:

وذلك من حيث إنها تعرض حياة إنسان يرهب ويرغب، يصيب ويخطئ ويفرح ويحزن، ويستبشر ويغضب، ويقلد ويجرب، ويخوض لُجَّة الزمان، ويتقلب بين أرجاء

المكان؛ طلباً للراحة والسعة والأمان، ويصارع نوازع من ذاته وقوىً تقع في خارجها، فيثبت تارة ويُهادن تارة، وينساق تارة.

هذه الحياة البشرية بما فيها من قوة وضعف، وتهاون وعزيمة تُمتعنا بما تطلعنا عليه من الجديد، وتغنينا بما تثيره فينا من ألوان الانفعال والشعور والإحساس، فنرضى بكلِّ انتصار تحققه ومكسب تصيبه، أو مرهوب تنجو منه ومرغوب تدنو إليه، ونحزن لكل مَحْزَنَةٍ تمرُّ بها، وتضيق صدورنا بكل ضائقة تعصف بها؛ نغضب لغضبها، ونترقب لترقبها، ونتوجس لتوجسها، وَنَفْرَقُ من المجهول الذي تَفْرَقُ منه؛ ليغنينا كل ذلك بالعواطف النبيلة والتجارب الإنسانية القيمة التي لم نعشها يوماً لطبيعة الاختلاف بين حيوات الناس وظروفهم وبيئاتهم. وتدفعنا دفعاً إلى أن نتعلل بها في وقت الفراغ ونتشاغل بها عن طموحات ذهبت أدراج الرياح؛ لذلك نتعلق بها تعلق العطشان بِفِيِّ السِّقاء حتى نُطْفِئ بها أُوار العطش الذي يُلهب نفوسنا، ونُبلل بها ما نشكوه من الجفاف في بعض تجاربنا العاطفية والإنسانية بوجه عام.

ب) الجانب الفني:

وذكرياته من جهة ثانية تمثل – فيما أعتقد – اتجاهاً فريداً في كتابة السيرة الذاتية – على الأَقل في أدبنا العربي – سواء من حيث الضخامة والطول والامتداد، أو من حيث البناء والشكل، أو من حيث اعتمادها على تقنية السرد الأدبي المفتوح على مختلف الأدوات والفنون في تمازج عجيب ليس له تعليل لدى الباحث؛ إلا أنه:

١. أَثر من آثار العصر الأدبي الذي تكوَّنت فيه أداة أديبنا اللغوية، والذي لا تكاد تتميز فيه الفنون تميزاً واضحاً، ويعتمد في تحديد مسألة (الأدبية) فيه إلى حد كبير على جودة الصياغة وجمال الألفاظ وشاعريتها.

٢. وانعكاس لثقافة الكاتب الموسوعية وسعة أفقه، وتعدد أدواته الفنية.

٣. ونتيجة طبيعية للحرية الواسعة التي يهبها نفسه عند الكتابة.

٤. وربما صورة للتعجل والارتجال في عملية الكتابة – أحياناً – قبل أن يستقر الموضوع في ذهن الكاتب في صورة متكاملة، ينتظمها شعور نفسي أو خط فكري واحد مكثف.

٥. وللاعتماد على الذاكرة وتسليم عنان القلم لـ: ما يعرف بـ (تداعي المعاني والأفكار).

٦. وللزهد في مراجعة الكتاب لتنظيمه وفق تشكيل محدد واضح.

وهذا الملمح الفني يجعلها أحق بالدراسة بصفتها نموذجاً طنطاوياً حديثاً – أو ما يشبه النموذج – من نماذج السيرة الذاتية، يلتحق بالنماذج الأدبية المعروفة للسيرة في أدبنا العربي المعاصر.

كما إن اتساع رقعة النص يجعل من مادته مكاناً خصباً لإجراءات ودراسات تتعمق جوانبه المختلفة، لاسيما في الجانب الفني بما توفره من شواهد، وما تجود به من ظواهر وسمات مطردة تصبغ الخطاب بصبغتها، وتميزه من غيره من أوجه الخطاب الأدبي. وكما تتمثل في الكتاب سيرة الكاتب تتمثل آراؤه في الكتابة والفن والحياة، وتبرز فيه ثقافته الواسعة، وتكوينه الوجداني والنفسي والعوامل المساعدة على صياغتها على هذه الشاكلة.

وقد أَلَمَّ الكاتب في ذكرياته بأغلب نتاجه الفكري والأدبي في إشارات تطول أو تقصر، فوضّح زمان ومكان وأسباب تأليفها وملابساتها المختلفة، مما يُعينُ على وضع تلك الأعمال في موضعها الطبيعي، لأن أكثر الأعمال لا يمكن تقويمها التقويم الصحيح إلا إن نُظِر إليها في سياقها من الأحداث والزمان والمكان. وحفظتْ ذكرياته للتاريخ كثيراً من المشاركات السياسية والتوعوية والجهود الأدبية سواء كانت خطابية أو إذاعية أو إبداعية مما لم يسبق نشرها، أو نشرت منذ فترة طويلة ولم يُعِد طبعها؛ فتناساها الناس أو قضى أغلب من سمعها[1].

وقد وضح أثناء عرضه لتلك المناشط الدعوية والسياسية والاجتماعية والفنية؛ أُسسه ومنطلقاته التي يعتمد عليها، ودوافعه التي يصدر عنها، وغايته وأهدافه التي يسعى إلى تحقيقها. وبما أنه يتحدث عن نفسه فحتماً أنه أَصدق الناس – نظريَّاً على الأقل – وأقدرهم على تحديد هذه الجوانب والتعبير عنها بكل دقة. وبهذا يكون

---

(١) ينظر: مثلاً الحلقات التي بعنوان: ليلى على سفح جبل قاسيون، ورسالته إلى جمال عبد الناصر، وخطبته قبل الانفصال وبعده، وغير ذلك: ينظر: الذكريات: ٢٦٩/٣-٢٧٦ و٦٢/٦-٧٢، ٧٥-٨٩ و١٥/٨-٢٣.

الكتاب وثيقة أدبية في غاية الأهمية تسد الباب أمام كثير من التكهنات والتخرصات.

جـ) ذكرياته خلاصة تجربته الكتابية:

ومن جهة ثالثة فإنّ ذكريات الطنطاوي تعد خلاصة تجربته الكتابية، وصفوتها بعدما تساقط عنها ما علق بها من الشوائب، وما تَدَثَّرَتْ به من الزِّينة والبهرج، مما يجعلها – بزعم الباحث – أكثر كتبه تمثيلاً للعناصر الفنية الأصيلة في كتاباته كالاستطراد والسخرية والفكاهة والاستشهاد والبديع والصورة.. الخ ويصير في مِكْنَة الباحث تفكيك لغتها وإعادة تركيبها. واستثمارُ كل ذلك في دراستها والوقوف على ملامح الفن فيها أجدى وأنفع وأبعد أثراً. والكتاب يشرع آفاقاً واسعة لإمكانية الدرس الموازن بعد استحضار النصوص الطنطاوية التي كتبها على مراحل زمنية متفاوتة.

إن الطنطاوي رجل يكتب منذ عام ١٣٤٨هـ وربما قبلها بقليل ولاشك أن الأسلوب لديه قد اعتراه شيء غير يسير من التطور والتحول؛ حسب المرحلة العمرية والإخلاص للفن من عدمه، والباحث إذا كان يرى أن هذه المسألة لا يمكن أن يقوم بها إلا بَحْثٌ متخصص فإن الدراسة قد التفتتْ إلى شيء من ذلك بما يتسع له المقام من الموازنة بهدف إيضاح الظاهرة أو السمة الفنية. وقد نجح الكاتب (علي الطنطاوي) إلى حد كبير في أن يعطي هذا الشعور بالاختلاف للقارئ العادي؛ ولو على سبيلٍ مبهم من خلال فكرة التطور والتغيير وما يعرضه من نماذج أدبية متباينة في نتاجه.

د) ذكريات الطنطاوي وثيقة تاريخية مهمة:

ولذكريات الطنطاوي أهمية خاصة إلى قيمتها الأدبية من خلال ما تعرضه، فهي وثيقة تاريخية واجتماعية وعقلية مهمة تكشف أحوال الناس المختلفة سياسية وثقافية واجتماعية وأدبية ودينية في فترة حرجة جداً من تاريخ أمتنا المعاصر، أي: منذ عام ١٩١٤م – ١٣٣٢هـ أو قبلها بقليل إلى أواخر عام ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م/١٩٨٨م وهذه الفترة تعد امتداداً لما يسمى بعصر النهضة وبالذات في نصفها الأول، وهي من أخصب الحقب الزمانية التي اجتازتها الأُمة العربية الإسلامية ففيها أفاقت من

سباتها العميق الذي كانت تغط فيه، واصطدمت بمعطيات ثقافية غريبة، ومدنية وقيم أيديولوجيات غربية استطاعت أن تؤثر إلى حد كبير في تكوين العقلية العربية الحديثة وما ورثته من أخلاق وأفكار وعادات.

وتجود الذكريات إلى هذا بالكثير من الحقائق التاريخية الخافية، وتحتفظ لنا ببعض التراجم لأعلام كبار أسهموا في خدمة الدين واللغة العربية، ونافحوا عنها موجة التَّغريب بالتَّعريب، وكان لهم يد في غرسِ حبها في نفوس الناشئة وتطويعها للحياة الجديدة. وتقدم إلى ذلك كله رؤية حضارية وتربوية لمفكر وأديب وداعية، شارك بما يستطيع في الدعوة إلى تحقيق مفهوم حضاري إسلامي ملتزم بالقيم والثوابت، ومرن في تقبل الوافد والجديد مادام قادراً على الصمود والمقاومة والمساهمة في رفاهية الحياة ومثاليتها وتقدمها.

ثالثاً: الدوافع إلى كتابة (الذكريات):

حديث الإنسان عن نفسه مستملح لديه ولكنه ثقيل على الناس ومستكره عندهم. وهذا القول ليس على إطلاقه؛ فإذا كان المتحدث ممن يتبوَّأ مركزاً مرموقاً أو ينسب إلى عمل بطولي أو أمجاد متوارثة، وكان هذا الكلام الذي يتفوَّه به أدباً وليس من جنس ما يدور بين الناس في مجالسهم فالأمر مختلف تماماً؛ إذ يكتسب المقول أو المكتوب مشروعية تخول له البقاء، وتلتمس له الأعذار، وتفسح له في قلوب الناس مكاناً وتُهيِّء له قبولاً واستحساناً.

غير أن بعض من يتحدث عن نفسه لا يزال يتحرج من ذلك أَشد الحرج، مهما بلغت تجربته في الحياة من الأهمية والنضج؛ إما حياءً أو تواضعاً، وإما خشية من اتهامه بالغرور والصلف. ولذلك يذهب في التماس الأسباب والدوافع التي تبرر ما أقدم عليه من حديث سافر عن نفسه. وفي العادة فإن هذه الأَسباب تكون أجنبية عن عمله الأدبي وعن تجربته الذاتية. وأقصد بـ (الأجنبية) أنها أسباب تستمد من الخارج بعد أن يكون قد استقر رأي الكاتب على المضي في الكتابة، أي: أنها لا تتصل بتجربته الفنية اتصالاً وثيقاً فضلاً عن أن تكون سبباً حقيقياً ودافعاً حافزاً للكتابة عنها. ومن هؤلاء ابن شهيد في رسالة (التوابع والزوابع) فإنه يذكر في

مقدمتها أنها إجابة لتساؤل من صديقه أبي بكر بن حزم[١]، والإمام أبو محمد ابن حزم الظاهري في كتابه (طوق الحمامة) يذكر أنه مبادرة إلى مرغوب صديق عزيز كلفه أن يصنف له رسالة في صفة الحب ومعانيه وأعراضه[٢]. والحقيقة أن تعليق الأَسباب الدافعة إلى التأليف بسؤال الصديق أو القريب عادة قديمة عند الكتاب العرب، لا يعرف الباحث لها تفسيراً دقيقاً مقنعاً؛ فالجاحظ – مثلاً – يذكر في صدر كتابه (الحيوان) أنه قد ألفه رداً على بعض العائبين[٣]، وأبو حيان التوحيدي يذكر أن كتابه: (الإمتاع والمؤانسة) ألفه لصديق هو: الشيخ أبو الوفاء[٤]، ورسالة أبي العلاء المعري المعروفة باسم: (رسالة الغفران) إجابة – كما يذكر – لابن قارح صديقه[٥].

والباحث (لا يقصد) أن تلك الأسباب من قبيل الكذب المحض والادعاء العاري عن الحقيقة، بل لعل أكثره صحيحٌ وعلى جانب من الصدق، فالإنسان حين يكون عالماً مشهوراً أو أديباً معروفاً لا يعدم من تلامذته أو خلطائه وجلسائه من عِلْية القوم، أو ممن يلقاهم في غدوه ورواحه ممن يحملون من الهموم العلمية أو الأدبية مثلما يحمل، لا يعدم منهم: رأياً أو مشورةً أو سؤالاً بتأليف في علم أو كتابة في فن. ولكن أين يكمن الدافع الحقيقي للتأليف العلمي، أو الكتابة الإبداعية؟!.

هذا ما يُغفل الإشارة إليه كثير من الكتاب، ولكن للقارئ الحاذق أن يستشف من طبيعة تكوين الكاتب النفسي وظروفه وهمومه، ما يتعلق به على وجه الخصوص أو بعصره أو مجتمعه على وجه العموم، أو بما يتصل بملابسات التأليف والكتابة. وإذا قَصرتُ الحديث هنا على ذكريات الطنطاوي ألفينا الكاتب يتجه الاتجاه نفسه، فيذكر في صدر كتابه أنه بدأ الكتابة بعد مماطلة وتأجيل وهروب مكرهاً – أو كالمكره استجابة لطلب الأُستاذ زهير الأيوبي الذي طلب إليه أن يدون ذكرياته في مجلة (المسلمون) لما عزم الأخوان: هشام ومحمد ابنا علي حافظ

---

(١) ينظر: التوابع والزوابع: ٨٧–٨٨، تحقيق: بطرس البستاني.

(٢) ينظر: طوق الحمامة: ٥٣–٥٤، تحقيق: فاروق سعد.

(٣) ينظر: الحيوان: ١/٣–١٧، تحقيق: عبد السلام هارون.

(٤) ينظر: الامتاع والمؤانسة: ٩–١٠، تحقيق: خليل المنصور.

(٥) ينظر: رسالة الغفران: ٧٥، تحقيق: د. محمد عزت نصر الله.

على إصدارها، بعد أن حاصره وسد عليه المهارب وأَمسك لسانه عن التصريح بالرفض[١].

ويذكر في مواقع متفرقة من كتابه أنه لولا توفيق اللّه وعونه، ثم طلب الأُستاذ زهير الأيوبي ومجلة (المسلمون) أولاً و(الشرق الأوسط) بعد ذلك؛ لما كتب شيئاً من هذه الذكريات. وقد هم أن يتوقف عنها بعد أن شرع فيها مراراً، ولكن رغبة القراء وإلحاح الناشرَين دفعاه إلى المواصلة، ويعترف بأنها نعمة مَنَّ اللّه بها عليه أن اضطره إلى كتابة ما تبقى في ذاكرته من سيرة حياته[٢].

وفي اعتقادي أن الدافع السابق برغم تأكيد الكاتب عليه كثيراً، إنما هو دافع أجنبي أحال الكاتب إليه ليحمي نفسه من الاتهام ويبرر به ما أقدم عليه. وهذا القول لا يعني أنه لم يكن دافعاً حافزاً للكتابة، أي أنه بمنزلة إحضار الورقة والقلم للأديب؛ ليدون خواطره فهي ليست أكثر من تهيئة للجو ووضع للكاتب في مواجهة خيار الكتابة، أما السير في تدوينها والإقبال بشغف عليها فشيء لا يمنحه القلم ولا تجود به الأوراق.

إن هنالك أسباباً ودوافع أخرى نابعة من داخل الكاتب ومن صميم التجربة نفسها، هي التي أمدَّته بالطاقة اللازمة لإتمام الكتابة. وأحسب أن البحث وراء الدوافع ومحاولة الوقوف عليها معينة على تفهم موقف الأديب، وتفسير تفضيله لهذا الأُسلوب أو ذاك. فالأدب – كما يعتقد الباحث – صورة فنية عن الحاجات، حتى إن كان في ظاهره ترفاً أو لهواً فإنه لا يخرج عن كونه تلبية لحاجات الرفاهية والفراغ.

ولاشك أن مَنْ يكتب لنفسه خاصة ليس كمن يكتب للنشر، ومن يكتب ليعرف ذاته، أو ليتخفف من عذاب الضمير ليس كمن يكتب مُدلاً بنفسه يروي عنها أعاجيب البطولة مما كان ولم يكن. ومن يكتب ليبرئ ساحته أمام التاريخ من اتهام يكاد يلتف حول عنقه؛ فيؤخذ بجريرته أو يبرر جرماً اقترفه بحق الإنسانية، أو في جنب القيم والأخلاق، ليس كمن يكتب ليستمتع بالماضي

---

(١) ينظر: الذكريات: ٥/١.

(٢) ينظر: السابق: ١٦٢/١ و١٦٣/٢ و٤٠/٥ و٢٣٣/٦–٢٣٤ و٨٥/٨.

الجميل، والأيام الحلوة التي عاشها؛ فلكل غاية وحاجة ما يناسبها من السُّبل الموصلة إليها، والمفروض في الأديب أن يسلك أقصرها وأَقْصَدها إلى تحقيق ما يريد. ومن هنا كان الوقوف على الدوافع وراء إنشاء كتاب (الذكريات) مهمًّا للدراسة الفنية ومعيناً في الوقت ذاته على إجرائها.

١. ولعل أول ما ينبغي معرفته في هذا الصدد أن السبب الأول في وجود (الأدب) بمختلف فنونه وأشكاله، هو الرغبة في (البث والتعبير) ولا يصح أن ينظر إلى فنّ السيرة أو أنواع البحث عن الذات بغير هذا المنظور الشامل. إذ هي في أساسها تجربة فنية، ولعل الباحث لا يَغْرم إن قال: إنها تصنع بنفسها التجربة الذاتية وإن أوحت أنها انعكاس أو نتيجة لها؛ وذلك بما تعمقه من المواقف الذاتية، وما تغفله وتهمله، وبما تنقله من خاصة التجارب إلى المحيط الأدبي الإنساني العام، وبما تُنْشِئُه من علاقاتٍ وتكوينات خاصة، قد لا يكون لها وجود على هذا النحو على أرض الواقع ولكنها لا تؤثر في تراكم الأحداث ولا تشكك في واقعيتها[1]. وقد تنجح هذه التجربة الفنية وقد تفشل بصرف النظر عن حقيقة وواقع التجربة الذاتية. ولا يمكن الأديب الصادق والفنان الملهم أن يظل منطويًا على قلقه الفني بل لابد من ترجمة لهذا القلق: نثراً إن كان ناثراً، وشعراً إن كان شاعراً، أو نغماً إن كان موسيقياً، أو نحتاً أو تصويراً أو نقشاً إن كان رسَّاماً، وإلا ظل قلقاً مضطرباً يُشْقي صاحبه لا يهدأ ولا يستقر، كالمصدور لا بد له أن ينفث مهما امتد به زمن الكظم، وطال الكتمان، أو كالمرأة الحامل لابد أن تضع حملها.

يقول الطنطاوي:

«هذه مقدمة ما كان مِنْ حاجة إليها ولكن الأدب هو البث، والأديب كالمرأة الحامل لا يزال يثقل عليها حملها حتى تحين ولادتها. والأديب لا يستريح حتى

---

(١) مثل: العلاقة بين الأسباب والأفعال فقد يُقْدِمُ كاتب السيرة الذاتية على إنشاء علاقة لا وجود لها بين هدف مثالي وبين (فعل) كان قد أقدم عليه بغير نية مبيتة؛ سواء من قبيل المصادفة أو طلب بعض المقربين، أو خوفاً على مستقبله، أو بنية شريرة؛ فانقلب الفعل إلى خير؛ فمثل هذه العلاقة التي تربط السبب بالمسبب لا تفسد تراكم الأحداث ولا تخل بالوقائع ولا يملك المراقب أن يكذب أو يشكك فيها مهما كان قريباً مالم يطلع على نية الكاتب ومقصده، وبرغم ذلك فإنها تزور الشخصية وتبهرجها وتجعلها تبدو في صورة أبهى مما كانت عليه.

يُلْقي إلى القراء وقرَ الفكرة، فيشاركوه في حملها. أما إن أحسن في هذا أو أساء، فأمر قلما يهتم بمثله الأدباء...»[١].

٢. ولقد كانت كتابة ذكريات الماضي ونشرها إحدى أُمنيات الكاتب الكبار – كما تقدمت الإشارة – وقد أعلن عنها قبل أكثر من سبع سنين من بداية تدوين ذكرياته في كتابه (تعريف عام بدين الاسلام)[٢]، ولكنه لم يوفق في كتابتها لسبب وحيد، هو: أنه لم يجد من يلتزم بنشرها له؛ فالطنطاوي لا يكتب إلا للنشر، وليس لديه الجَلَد ليجمع الأجزاء، ويَصفَّ الحلقات، وينتظر تمام الكتاب ثم يخرجه إلى الناس. فلما جاء الناشر استيقظت تلك الرغبة الهاجعة، واستطالت في نفسه فكتب على امتداد سبع سنوات بصورة أُسبوعية لا ينقطع عنها إلا لظروف قاهرة، حتى تجاوز ما كتبه من الحلقات (٢٤٠) حلقة، ثم أخرجها في ثمانية مُجلَّدات ضخمة.

٣. أما الدافع الثالث؛ فإحساسه بقيمة الحياة التي عاشها وأهمية الأعمال التي قام بها، سواء في الجانب الشخصي والأسري، أو في الجانب العام الذي يمس الناس ويتصل بهم. فالحياة عند الطنطاوي حياتان، أولاهما: طريق طويل فيه مراحل، لكنها جميعاً كالسهل المكشوف الظاهر المنبسط. ليس فيه شيء مجهول يتشوق السالك إلى معرفته، ولا مخوف غامض يخشى من لقائه، يمشي فيه أيّاماً وليالي فكأنه ما مشى إلا ساعةً من نهار؛ لأنه متشابه المناظر بعيد عن المخاطر. والثانية: طريق طويل فيه مراحل ولكنها ليست كالأولى؛ فالسّالك يمشي تارة بأرض منبسطة مكشوفة، وتارة يمشي بين الجبال يعلو فيها حتى يبلغ الذروة ثم يهبط حتى يصل إلى الحضيض، كلما دار به الوادي تبدلت من حوله المشاهد، فربما رأى الروضة المونقة والنبع الصافي، وربما أتى جَنَّةً ذات خمائل وعيونٍ تجري من تحتها السواقي والأنهار، وربما اعترضته عقبة، أو سلك قفرة موحشة وما تحته إلا الجنادل والحجارة وما حوله إلا جلاميد الصخر، يشتهي قطعةً من ظل تقيه لذع الشمس، أو كأساً من الماء يطفئ منه أَوَرَ العطش فلا يجد، وربما فُتحت تحت رجليه حفرة أو طلع وحش مخيف أو ذئب كاسر أو مجرم قاطع طريق.

---

(١) السابق: ١٢٧/٥.

(٢) ينظر: ٤–١٥.

فالأولى مثال حياة من يعيش في البلد الآمن، في العصر الهادئ، السَّنة عنده كأنها يوم، يكون ابن خمسين سنة، وكأنه من تشابه أيامه ما عاش إلا عشر سنين، مطمئن النفس ولكنه هامد الحس فاقد الشعور.

والثانية مثال حياة من يعيش في عهود الانتقال، في ظل الأحداث الكبار، اليوم عنده من تبدل الأحوال كأنه سنة، فيكون ابن خمس عشرة سنة، وكأنه من كثرة ما رأى وشاهد ابن أربعين سنة، مستوفز الحس، مشدود العصب، كله عيون مفتوحة، وذهن حاضر[1].

وحياة الطنطاوي من جنس الحياة الثانية، حياة خصبة تستحق التسجيل والكتابة، وقيمتها تنبع من المجهول الذي يحجب عن السالك طريقه فيها، ومن حجم الصراع الذي يملؤها بمستوياته الداخلية والخارجية، وقد عاش الطنطاوي في مرحلة انتقالية سياسية ونهضوية؛ فشهد قيام دول وحكومات وأفولها: أدرك الحكم العثماني، ثم الحكم العربي، واصطلى بنار الاستعمار الفرنسي، وذاق ويلات الحربين العالمية الأولى والثانية، وناضل من أجل استقلال وكرامة الإنسان العربي المسلم؛ حتى جاء الاستقلال، وشارك في الدعاية والتعريف بقضية فلسطين قبل أن تسقط القدس في يد المحتل الإسرائيلي وسافر إلى أقصى الشرق المسلم من أجل توعية المسلمين بالخطر القادم، وعاش حيناً في العراق ومصر ولبنان وسوريا والسعودية، ورحل إلى أقصى الشمال من هولندا، ورأى في الدنيا حلواً ومُرّاً وذاق الفقر وذاق الغنى، ووجد الوفاء ووجد الغدر، واشتغل بالتعليم قبل أن يكمل تعليمه وعلَّم صغاراً وعلم كباراً، وبنين وبنات، ومشايخ وأفندية، في المدارس العامة والمدارس الشرعية والمدارس الأهلية، وفي الثانويات والجامعات، ودرس في الأقسام العليا من التعليم، واشتغل بالمحاماة والصحافة وولي القضاء وبلغ فيه أعلى المراتب، ثم سُرِّح منه دون إنذار أو إخبار لما عرف به من نُصْرة القضايا الإسلامية، والغيرة على الأخلاق، والمطالبة بحرِّيَّة الرأي في التعبير والحقوق. وكان من أوائل من دخل إلى الإذاعة وأعد البرامج فيها وقدمها يوم أُنشئت محطة الشرق الأدنى في يافا قبل الحرب العالمية الثانية، ثم اتصل بالتليفزيون وكان أيضاً من أوائل من اتصل به من

---

(١) ينظر: الذكريات: ٣/١٠٣-١٢٤ بتصرف.

المشايخ، فكانت تجربته فيهما من أنجح التجارب في الميدان الإعلامي وأميزها. ومرَّ بمراحل وأطوار فكرية مختلفة متنقلاً بين المذاهب والأفكار، فكان أَوّل الأمر على الصوفية على الطريقة النقشبندية متأثرا بوالده وببعض مشايخه من الصوفية ثم عاد إلى السلفية، وفق المذهب الحنفي مقلداً أولاً، ثم انتهى به الأمر إلى السلفية المبَرَّأة من كل ما يخالف اعتقاد السلف رضوان اللّه عليهم مجتهداً لا يربط نفسه بمذهب بعينه، ولكن يبحث عن الدليل ويأخذ به، وينشر الفتوى والعلم بين الناس، وقاد المجتمع في كل موقع أقام فيه إلى تغيير بعض المفاهيم غير الصحيحة المتوارثة، وسعى فيه إلى الإصلاح ومحاربة الظلم والرَّذيلة، ووقف في وجه دعاتها، وقاوم القومية الجوفاء التي تُحيِّد الإسلام والمسلمين، ورفض الشيوعية علناً أثناء الوحدة بين سوريا ومصر، وخطب في الدعوة إلى الانفصال حتى تحقق له ما يريد، ووعظ الناس وكتب في الإصلاح والاجتماع والفقه والفلسفة والأدب فرضي عنه خلق وسخط عليه آخرون[١].

يقول عن نفسه:

– «**لطالما وقفتُ مواقف كانت حديث الناس، وكانت حادث الساعة كنتُ فيها ملء الأسماع والأبصار، وكان اسمي فيها على كل لسان**»[٢].

– «**ذلك لتعلموا أن حياة الإنسان لا تقاس بـ (طول السنين)، بل بـ (عرض الأحداث) فقد بلغ عمري في التاريخ الذي أكتب عنه اثنتي عشرة سنة فقط، ولكني رأيت فيها حكم الأتراك، وحكم العرب ومن ورائهم الإنكليز، مستخفون بأشخاص ظاهرون بأعمال، كالوسواس الخناس مع الناس وسأشهد قريباً حكم الفرنسيين، وهم ظاهرون ظهوراً قوياً ولكن أثره (إن قيس بأثر أولئك) كان ضعيفاً**»[٣].

لقد أراد الكاتب أن يطلع القراء وبخاصة من الجيل الجديد على مسيرته الفكرية والأدبية، وجهاده في الحياة، ومكانته الاجتماعية والدِّينية، وأثره في كل مكان حَلَّ فيه، ويسجل ذلك للتاريخ وللأجيال القادمة، فأغلب القراء – اليوم – لا يعرفون عنه إلا أنه ذلك الشيخ الداعية الذي يطل عليهم عبر نافذتي الإذاعة

(١) ينظر: علي الطنطاوي: تعريف عام بدين الاسلام: ١٣–١٤ والذكريات: ٨/٢١٣–٢١٤.

(٢) الذكريات: ١/١١.

(٣) السابق: ١/٦٦.

والتلفاز، في حين أن في حياته جوانب أخرى مهمة يرغب في أن تظهر وتعرف عنه، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يسرد تاريخ حياته، ويذكر ما له وما عليه، ويعقد بينه وبين قارئه صلة من المودة والصحبة والمشاركة الوجدانية والصدق المتبادل. وباختصار أراد أن يقول لهم:

«إن لديَّ أثواباً جميلة غير ما يراه عليّ من يعرفني هنا الآن، ولكني إن لبستها ورآني من لم يرها عليَّ ظنَّ أني سرقتها أو استعرتها، فكيف لي بإقناعِه أنها ثيابي أنا، لم أسرقها ولم أستعرها؟!»[١].

ويقيناً أن ناشراً يحرص على الرِّبح، ورواج ما ينشر لن يغامر بنشر سيرة باردة لخامل أو عادي ما لم يَر أنها جديرة بأن تُكتب وتقدم للطالب؛ فكيف به إن كان أديباً مثل الطنطاوي. ولو شعر الطنطاوي بأن ما يكتبه ليس له قيمة فإنه كان سيتوقف عن الكتابة فيريح ويستريح.

٤. أما الدافع الرابع لكتابة ذكرياته فهو: البحث عن إجابة مريحة لتساؤل قديم طالما أرَّق الكاتب، لا يفتَأُ يُردِّدُه بين الفينة والأخرى، عسى أن يلتمس له جواباً حاسماً، وهو: من أنا؟ من أكون؟! وفي أي مرحلة عمرية يوجد علي الطنطاوي؟ هل (أناه) في مرحلة الطفولة، أم في مرحلة الصبا، أم الشباب أم الكهولة أم الشيخوخة؟! يقول مفلسفاً هذا التساؤل:

«... هذه صورتي، وإن لم تصدق فتعالَ[٢] إليّ لتراني شيخاً بعيداً عن الأناقة وعن الجمال. فهل الصورة المنشورة في العدد (٤) من (المسلمون) ولدت إذن في خيال فنان، وظهرت على طرف ريشته مالصاحبها وجود؟ لا، بل هي صورة حقيقية لإنسان حقيقي، وقف بنفسه أمام آلة التصوير، إنسان أعرفه كما أعرف نفسي كان دائماً معي لا يفارقني، يفكر بعقلي، وينطق بلساني، واسمه مثل اسمي، ولكنه ليس أنا!! فمن هو إذن؟ وأين ذهب؟!

يا سادة، أنا لا أُغرب، ولا أتفلسف، ولا آتي بالأحاجي والألغاز، ولكن أقول الحق، الحق الذي لا أعرف الطريق إلى إدراكه تماماً. ففكروا معي، لا في صورتي

---

(١) السابق: ٣/ ١٧٠.

(٢) الخطاب للقارئ.

أنا، بل في صورة كل واحد منكم قبل عشرين أو ثلاثين سنة، وإن كان أحدكم شيخاً مثلي فليمسك الصورة، والمرآة بيد، هل الذي في المرآة هو الذي في الصورة؟! لا.. فهل هو غيره؟ لا.. هل أحدهما خيال لا وجود له والآخر إنسان موجود؟! لا، هل هما موجودان معاً؟ لا.

فما القصة إذن؟ إن كان هذا الشاب هو علي الطنطاوي، فأنا لست علي الطنطاوي، فمن هو؟ ومن أنا؟ وأين ذهب؟ وكيف لا يعود؟ لقد صرت مثل (هبنقة) كانت له قلادة يضعها حول عنقه ليعرف بها نفسه، فنام ليلة فسرقها أخوه فتقلدها، فلما أصبح ورآها عليه، قال له: أنت أنا، فمن أنا؟

لقد أثار مسألة عجز الناس عن جوابها فقالوا: أحمق، وحسبوا أنهم استراحوا لأن الحمقى لايستحقون الجواب. فهل تعرفون أنتم جواب سؤالي؟! أم تقرّون عاجزين، أم تُقرّون بأن في وجودنا، وفيما حولنا، وفيما وقع لنا، ما تعجز عن إدراكه عقولنا؟ أم تقولون عني ما قالوه هم عن هبنقة المسكين؟ فتستريحون ولكنكم لا تريحون»[1].

أعتقد أن السيرة الذاتية هي الأقدر على أن تريح النفس قليلاً من عناء الأسئلة التي تخص الذّات وإمكاناتها وقدراتها وما يطرأ عليها من تحول وتبدل؛ لأنها وسيلة معينة على تلمس الإجابة، على أنها وإن كانت إجابة غير حاسمة لأنها تتعلق (بمتغيرات) تُحدِثها السُّنون على المستويات الجسمانية والنفسية والفكرية للإنسان، إلا أنها بما تهيِّئهُ من الوقوف على المنعطفات الخطيرة في الحياة الفكرية والنفسية والاجتماعية، وبما تيسره للكاتب عند إعادة تسلسل أطوار النمو وتدرجاته الطبيعية، وبخاصة حين يتوافر للكاتب الصدق وحسن النية مع نفسه وقارئ سيرته؛ تجعل الإنسان قادراً على تفهم نفسه، ومعرفة نقاط الالتقاء في ردود أفعالها وتصرفاتها، التي تنتظم جميع المراحل العمرية، وتَفَحُّص المتغيرات وإرجاعها إلى أسبابها الكامنة في النفس أو المرحلة الزمانية أو الاختلاف المكاني وتباين الظروف والأهداف والتطلعات.

لاشك أن هذه الغاية، أي: معرفة الذات والاقتراب منها وتحديد مكوِّناتها وصفاتها في تصور شمولي واحد، مهما بدتْ متناقضة ومختلفة – وهذا شيء طبيعي

(١) السابق: ٢/٥٣.

بالنسبة للشخصية الإنسانية – مقصد من مقاصد الكاتب، وهدف من أبرز أهداف الكتاب؛ أمّا إن نجح أو لم ينجح فهذا شيء آخر، ويكفي أنه قد أفصح عنها في تعليل لسؤاله القراء: أن يكتبوا مذكراتهم وذكرياتهم ويدونوا أحداثها التي تستحق التدوين في وقتها:

«أوصي كل قارئ لهذه الفصول أن يتخذ له دفتراً يدون فيه كل عشية ما رأى في يومه، لا أن يكتب ماذا طبخ وماذا أكل، ولا كم ربح وكم أنفق، فما أريد قائمة مطعم ولا حساب مصرف، بل أريد أن يسجل ما خطر على باله من أفكار وما اعتلج في نفسه من عواطف، وأثر ما رأى أو سمع في نفسه لا ليطبعها وينشرها، فما كل الناس من أهل الأدب والكتابة والنشر ولكن ليجد فيها يوماً نفسه التي فقدها.

لا تعجب من هذا الكلام فنحن في تبدل مستمر كل يوم يموت في شخص ويولد شخص جديد، والميت أنا، والمولود أنا، خلايا جسدي تتجدّد كل بضع سنوات حتى لا يبقى منها شيء مما كان، عواطف نفسي تتبدل فأحب اليوم ماكنت أكره بالأمس وأكره ما كنت أحب. أحكام عقلي تتغير فأُصوّب ما كنت أراه خطأً، وأُخطِّئ ما كنت أجده صواباً. فإذا كانت خلايا الجسد تتجدد، وعواطف النفس تتغير، وحكم العقل يتبدل فما هو العنصر الثابت الذي لا يتبدل ولا يتغير؟! أقول: (قال لي عقلي) و(وقلت لنفسي) فمن أنا إذن، إذا كان عقلي غيري فأقول له، وكانت نفسي غيري فتقول لي»[1].

٥. ومن الدوافع أيضاً: الرغبة في تنقية النفس بمحاسبتها والتخفف من الذنوب بالاعتراف بمواطن الخطأ، وإرجاع الحقوق إلى أصحابها، وبيان الملابسات المختلفة وإطالة معاتبة النفس ولومها على ما مضى؛ تطهيراً لها من الخطايا وغسلاً لها من الأوزار[2].

ولقد كانت هذه عادة الكاتب في كل عام إذ يقف في بداية العام الهجري أو الميلادي ليراجع حساباته ويكفر عن زلّاته، وهو مبدأ إسلامي طيب وحسن. ومحاسبة النفس في حد ذاتها غاية نبيلة وعظيمة لأنها تورث الإنسان البصَارَة بالنفس والفَرحةَ بها، وتُنَقِّيْهَا وتُرجعها طاهرة مشرقة، يقول الطنطاوي:

---

(١) السابق: ١/٩–١٠ و١٥.

(٢) يراجع الفصل الثاني من هذا الكتاب، مبحث محاسبة النفس وعتابها.

«فتحتُ اليوم (١٤٠٥/٥/٢٣هـ) الصفحة التاسعة والسبعين فمتى تغلق؟ وهل أقدر أن أعود على ما قبلها فأُصَحِّحَ ما فيه من أخطاء مطبعية، أو ما فيه من أغلاط فكرية؟!

إن من رحمة اللّه بنا أن جعل لي ذلك أعود إليها ولكن بالذاكرة، وأُصَحِّح ما فيها بالتوبة، فاللهم إني تبت إليك فتب عليّ وجئت أستغفرك فاغفرلي، ولقد أيقنت واللّه الآن أن لذائذ الدنيا سراب وأن مخاوفها أوهام، وأنها كلها رُؤَى منام، وأضغاث أحلام. كتابة على الماء يموج الماء فيمحوها، يمحوها أمام عينك ولكنها ثابتة أمام اللّه، لا تضيع منها صغيرة ولا كبيرة، يحصيها ليحاسبنا عليها.

دنيا كالذي تراه في لوحة الرائي (التليفزيون) مناظر جميلة، وجبال وأنهار، وناس وبهائم، عالم كامل، ولكن إذا أَدَرت المفتاح، أو انقطع تيار الكهرباء، ذهب كل ما ترى في لمحة فكأنه ما كان.

كنت أقف على رأس كل سنة فأصفي حسابي مع الزمان، ولكن كبر الآن رقم الحساب، وطال العمر، وما عدت استطيع أن أشمل كل الذي رأيت في عمري بنظرة، ولا أن أحصره في فكرة ولا أن أصوره في مقالة. إني لأفكر الآن: ما الذي قدمته لآخرتي في هذه السنوات الطوال؟ ما الذي نفعتُ به الناس... ما الذي بقي لي من ذلك كله الآن؟»[1].

وهو في محاسبة نفسه يشتد كثيراً في ملاحقتها، ولكنه لا يغفل عنصر النية فيها فلا يُحمِّل نفسه من الأخطاء مالم يرتكبها عن نية مبيتة، وهذا يدل على رغبة أكيدة في التَّطَهر والتخلص مما في عنقه من الحقوق[2]، وهو مطلب من أبرز مطالب كتابة الذكريات، وإن لم يفصح عنه الكاتب ضمن الأسباب التي دفعته للكتابة[3].

٦. ومن الدوافع أيضاً رغبة الكاتب في أن يؤلف كتاباً قبل أن يعتزل الدنيا والناس، يُذَكِّر الناس به أديباً وكاتباً كما بدأ حياته أديباً وكاتباً؛ فكان مِلْءَ

---

(١) السابق: ٥/١٤٦-١٤٧.

(٢) من الأخطاء التي تراجع عنها واعترف بها رده على أستاذه شفيق الجبري حين قال عن الأدب: إنه أُلهية شريفة، واعتذاره للتاريخ عما كتبه بحق الدكتور الفاضل علي عبده وفي رحمه اللّه ينظر السابق: ٤/٣٥-٣٨ و٨/١٧٨.

(٣) يراجع مبحث: (محاسبة النفس وعتابها) في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

سمع مجتمعه وبصره، ويريد الطنطاوي لهذا الكتاب أن يكون سميراً للأدباء في ليالى الوحدة، يقص عليهم حياة إنسان وكفاحه، ويتخذ منهم أصدقاء لا يحضرون لطمع ولا يتفرقون لفزع، ولا يُحصَى عددهم، يخصهم بحديثه، ويعرفونه بعد موته، ويكنون له الحب والولاء ويدافعون بما يعرفون عنه من جزيل تضحياته، وسليم مقصده، وحسن نيته، وبما اطلعوا عليه من دقائق أخباره ووقائع حياته.. يقول:

«قطّعت حياتي قطعاً وتركت في كل هذه البلاد فلذة منها، لي في كل واحدة ذكرى أو ذكريات لو جمعتها ودونتها لجاء منها أدب أُخلِّفه بعدي: سميراً للأدباء في ليالى الوحدة، أتخذ منه أصدقاء يعرفونني بعد موتي وأنا ما عرفتهم..»[1].

٧. التلذذ بالماضي والاستمتاع باستعادته دافع مهم لا يمكن إغفاله لاسيما أن الكاتب قد بدأ الكتابة في عمر زمني متأخر، وكبار السن عادة يحنون إلى أيام الشباب والصبا، ويرقون لذكرياتها وأحداثها. وقد أدرك الطنطاوي هذا الجانب في نفسه، واجتهد ليعرف سر هذا الحنين في داخله وداخل كل من عرفهم من الشيوخ إلى مرحلة الصبا، وقد يكونون في شيخوختهم أوسع حالاً وأوفر مالاً وأكثر جاهاً مما كانوا عليه أيام الشباب:

«لماذا أجد كل ما سمعت في الإذاعة أو قرأت في الصحف حديثاً مع شيخٍ مثلي عالي السن، لماذا أجده يفضل أيامه الخوالي على الحواضر من أيام الناس؟ هل كان الأمس دائماً خيراً من اليوم، هل كانت الأخلاق كلها أفضل؟ والناس جميعاً أكمل؟ والحياة بكل ما فيها أجمل؟... أَمَّا الحنين إلى الماضي فهو شيء طبيعي، لأن الانسان لا يعرف قيمة النعمة إلا عند فقدها: الطعام الآن أمامك والشراب البارد تحت يدك، فهل تقدرهما كما تقدرهما وأنت صائم في نهار الصيف الطويل؟ هل تعرف قدر نعمة الأمن إلا عند الخوف والصحة إلا عند المرض، والإقامة إلا عند السفر.. كذلك الشيخ لا يعرف قيمة الشباب إلا عند فقده. الشباب في الشام والعراق لهم نشيد مشهور هو (نحن الشباب لنا الغد) فما لنا نحن الشيوخ غير

---

(١) الذكريات: ١١٩/٣-١٢٠.

الأمس؟ لذلك نأسى عليه ونَحِنُّ إليه، ومن هنا سمى العرب الشيخ الكبير (الكُنتي) لأنه يكثر أن يقول: كنت وكنت..»[١].

وأحسب أن (الفعل التذكري) عند الشيوخ – في حد ذاته – قيمة نفسية ووجدانية مهمة؛ لأنه يعيد إليهم التوازن الطبيعي، ويمنحهم الشعور بالراحة والطمأنينة، ويقوي من إحساسهم بذواتهم وما حققوه من إنجاز في مراحل سابقة، ولذلك يهرعون إليه كلما ضاق بهم الحاضر، أو ابتغوا السعة في عالم الذكريات:

«أنا في كل يوم أودع راحلاً كريماً يحمل قطعة من نفسي، وحزمةً من ذكرياتي، وما الحياة إلا مجموعة الذكريات. ولقد قلت من قديم إن المرء يحيا بمنظر الحي من سطح داره، ومنعطف الشارع من نافذة غرفته، والمنارة التي يرى ذروتها منها، والوجوه التي ألف أن يراها، والأصوات التي تعوَّد أن يسمعها، فإن نقص شيءٌ منها نقص شيءٌ من حياته هو...»[٢].

ولذلك يختلف أديبنا مع الشاعر شوقي في صدر الحلقة الثانية من ذكرياته:

«الحياة الحب، والحب الحياة. هذا ما قاله شوقي ولكني لست في هذا معه؛ فقد يموت الحب ويعيش ناس بلا حب. وما أنا من أنداد شوقي، ولكن لو قال: ما العيش إلا الذكريات لكان أصدق»[٣].

والاختلاف راجع – فيما أحسب – إلى اختلاف المرحلة العمرية التي ينظر منها كل منهما إلى الحياة. شوقي ينظر إلى الحياة بعين الشاب المتلهف إلى الفعل، والحب بمعناه الشامل ينسج العلاقات الجديدة ويوطدها، ويغري بالاستكشاف وارتياد العوالم المجهولة، بما يخلعه على الكون من نداوة وإغراء وجمال؛ لذلك كان وسيلة من وسائل تجديد الحياة وتحريكها. لكن الطنطاوي ينظر إلى الحياة باعتبارها الماضي / الذكريات لأن الماضي مكان الفعل الوحيد بعد أن سكنت الأعضاء وأقعدها الهرم الذي لايرحم، فوهن العظم، ورق الحزم، وفتر العزم،

---

(١) السابق: ١٤٩/١ – ١٥٠.

(٢) السابق: ١٦١/٨.

(٣) السابق: ١٧/١.

ودُفِنَت بين أضلاعه شهوة التعرف إلى القادم والتطلع إليه، وخفتَ في عينه أو كاد بريق الشهرة، وفقد حرارة الإقبال على حاضره...

ومن هنا تأتي مشروعية هذين التشبيهين اللذين يوضحان أهمية الذكريات بالنسبة إلى رجل كبير السن مثل الشيخ الطنطاوي:

– «هذه ذكرياتي. حملتها طول حياتي وكنت أعدها أغلى مقتنياتي لأجد فيها يوماً نفسي وأسترجع أمسي، كما يحمل قربة الماء سالك مفازة، لترد عنه الموت عطشاً ولكن طال الطريق، وانثقبت القربة فكلما خطوت خطوة قطرت منها قطرة، حتى إذا قارب ماؤها النفادَ، وثقل عليَّ الحمل، وَكَلَّ مني الساعد، جاء من يرتق خرقها، ويحمل عني ويحفظ لي ما بقي لي من مائها»[١].

– «النبات يمتص حياته من أرضه بجذوره، فإن نقلته منها تقطعت فذبلت الأوراق، وتراخت العروق. والإنسان في هذا كالنبات، وجذوره ذكرياته، فإن نقلته إلى بلد ما له فيها ذكرى، وما تربطه به رابطة أَحسَّ كَأَنْ قد انقطع سلك حياته، فإذا أقام في البلد الجديد اتصل المنقطع، كالنبات يضرب جذوراً جديدة في المكان الجديد، وتنمو وتمتد كلما امتد به المقام، فإذا أعدته إلى أرضه الأولى عاد إلى الذبول»[٢].

ولأن الماضي جزءٌ من أجزاء الزمن لا يمكن أن يَكْسر القانون الكوني لجريان الزمان ولا أن يطغى عليه، فلا سبيل إلى عودته إلى الحياة إلا بأن يطير إليه المرء على جناحين من: ذكرى وخيال: ذكرى تُريه الناس والأشياء والوقائع والأحداث، وخيال: ينفخ فيها الحياة بعد أن تَقضَّتْ، فيعُرِّفَه بما لم يكن يعرفه في وقته، ويبرز له منها ما يلبي رغباته ويرضي نزعاته ويشعره بذاته فيمتعه ويسعده:

– «هل تعود إليَّ الأيام الماضيات؟! لا، ما تعود، ولكن أنا الذي أعاد إليها على جناحين من ذكرى وخيال لأدخلها مرة ثانية فأعيش فيها في حلم ممتع فنان»[٣].

والاسترجاع التذكري لا يقف عند التلذذ والاستمتاع المجردين فحسب، بل هو

---

(١) السابق: ١/٥.

(٢) السابق: ١/١٧.

(٣) السابق: ١/١١٢.

محاولة تعويضية أيضاً، يتحسس فيها الكاتب نفسه التي فقدها، وبعبارة أصدق: فقد أثرها فيما حوله من الأحداث والناس؛ فيعود إلى هدوئه واطمئنانه وسكونه وتوازنه، ورغبته في الحياة ورضاه بشيخوخته؛ لأنها تمثل دورةً طبيعية من أدوار الحياة لها خصائصها وصفاتها، يقول:

«أنا رجل كلما تقدمت به السن ازداد إيغالاً في عزلته، وهرباً من جماعته... حتى غدوت وقد رَثّ حبلي، وتصرم إلا خيوطاً: طائفة من الأصحاب لا يبلغون عدد أصابع اليدين، وأماكن هي أقل من ذلك لا ألقى سواهم ولا أرتاد غيرها، ولم يبق لي في اللّيالي الطوال مؤنس أو سمير إلا هذه الكتب، وهذا الماضي أزداد كل يوماً تعلقاً به وحنيناً إليه، أما المستقبل فأخافه، ولا أَجرُؤ على التفكير فيه. لذلك تراني إن لقيت رفيقاً من رفاق الصبا استوقفته وعانقته وشممته، لعلي أجد في ثيابه عبقاً من أزاهير الماضي الحلو، الذي طربنا فيه جميعاً يحملنا مرح الطفولة وعبثها اللذ فجزنا خلال رياضه وأوغلنا في دروبه المعشبة... أحاول أن أستطلع ما وراء هذا الشباب الذي نالت منه الليالي، حتى أشرف على الكهولة وهَدَّته مطالب العيش، فأخذَتْ منه رواءه وبهاءه فبدا كالشجرة المنفردة القائمة على شفير الوادي، عاجلها الخريف ببرده وعواصفه. أحاول أن أرى من وراء طلعته ذلك الصبي المرح دائماً، الضاحك اللاهي الذي كُنْتُهُ يوماً، والذي أحببتُه وقاسمتُه مرحه ولهوه، فإذا لم أرها رجعت أجر رجل خائب فجع في أعز آماله وفقد أحب أمانيه إلى قلبه، وإنْ وقفت على معهد من معاهد الصغر أو ملعب من ملاعب الطفولة فتشت في زواياه وأركانه، وتحسست الحجارة من جدرانه، علّي أجد بينها ذكرى حُلوة قد خَبَّأتُها يوماً ونسيتها»[1].

فالرجل فقد الشعور بالأمل في المستقبل، والإحساس بفرحة الآتي، وفقدَ القدرة على العمل في الحاضر، وشعر بأنه قد وصل إلى المحطة الأخيرة التي ليس فيها سوى الانتظار لساعة الارتحال المحتومة، وفي ساعات الانتظار يتجمد الزمان والمكان معاً فلا يتقدم الزمان ولا يتغير المكان، وتكتسي الوجوه النَّضرة مسحة من مَلال، وتتغشى النفسَ كآبةٌ غريبةٌ، لا تقوى على دفعها إلا بالانغماس في الحياة من جديد، وهيهات لمن كان في مثل سن الطنطاوي أن يبتعث الحياة فيما أبلته

(١) السابق: ١٧٨/٧ وينظر أيضاً: ٣٣٨-٣٨٩، و٥٧/٨-٦٠.

الأيام من نضارة الشباب وعنفوانه. ومن هنا يأخذ الشيوخ في الاستسلام إلى إغفاءة (ماضوية) لذيذة، يبددون فيها الوحدة والكآبة.

يقول الطنطاوي:

«ما الذي أطلبه أنا، وما هي آمالي؟! الشاب الواقف في أول الطريق يراه واضحاً ويرى غايته دانية، أما أنا فإني أستقبل العام وأنا في المحطة الأخيرة، لم تبق أمامي غاية أعمل على بلوغها. الشاب حياته أمامه، وأنا أيامي قد خلفتها ورائي، أياماً طويلة رأيت فيها ضياء النهار يعقبه ظلام الليل، ورأيت ظلام الليل يأتي بعده ضياء النهار. شهدت هذا المشهد أكثر من عشرة الآف مرة فاستوى عندي الضياء والظلام. سررت وتكدرت فإذا السرور الآن وإذا الكدر ذكرى في النفس لا شيء منه في اليد، لا الفرح دام ولا الآلام»[1].

على أن طبيعة الكاتب تُؤثِر العودة إلى الماضي، وتكره المستقبل أو تخافه بعبارة أصدق، وتتمنى لو بقي لها ما أَلفته من عوالم وأَحداث، وقد ازداد هذا التخوف من المستقبل، والتعلق بالماضي مع تقدم السن. يقول:

«يقولون إن لكل جديد لذة ولكني لا أذكر أنني مر عليّ عيد وأنا صغير وجاءوني بثوب العيد إلا لبسته مكرهاً باكياً، ولا انتقلت من دار إلى دار، ولا من بلد إلى بلد، ولا تحولت من عمل إلى عمل، إلا أسيت على فراق ما تركت ورائي، وخشيت ما سألقاه أمامي، فهل كان المتنبي ينطق بلساني حين قال:

خلقت ألوفاً لو رُجعت إلى الصبا

لفارقت شيبي موجعَ القلب باكيا»[2]

وما دام الأمر كذلك فطبيعي جداً أن تطول ذكرياته وتمتد صفحات الكتاب؛ لأنه يتجه إلى دقائق الوقائع وصغائر الأحداث، ويولي التفصيلات البسيطة عناية بالغة؛ فكل حياته عليه عزيز يضن بها على الضياع، وكلها تستوي في تحقيقها للسعادة والراحة والطمأنينه؛ لذلك يوغل في الغيبوبة في استرجاع أحداث الماضي، ونبشه من تحت ركام السنين، يقول:

---

(١) السابق: ٨/٢٥-٢٦.

(٢) السابق: ٥/١٢٠.

— «إن ذكرى الماضي حلوةٌ في الأفواه، ولو كان هذا الماضي مرَّ المذاق. إن فقده غَلَّفَهُ بغلافٍ براق، يلمع من خلال الذكريات، فيستهوي لمعانه القلوب الشواعر، لذلك كان من أعظم فنون الشعر العربي القديم الوقوف على الأطلال وبكاء الديار. لا يبكي الشاعر حجراً ميتاً كما زعم أبو نواس ساخراً، بل يبكي زماناً كان حياً يبكي قطعة من عمره كانت فبانت..»[١].

— «لماذا تحلو ذكرى الماضي ولو كان مُرَّاً؟! هل تذهب الأيام بالمرارة، وتصب في الأحداث إن مضت سكراً وعسلاً، أم قد حلت في عيني لأني فقدتها؟! ومن نكد الدنيا أن مسرتها مشوبة بألم، وأن المرء لايستحلي الشيء إلا إن خلت يده منه وقد كان يزهد فيه لما كان في يده، وأنه يشتهي ما يُمنع منه ويملُّ مما يعرض عليه»[٢].

٨. وحتماً أن وراء كتابة الذكريات دوافع أخلاقية نبيلة كثيرة تتجلى في الاتجاه بها إلى الوعظ المباشر في أكثر الأحيان وإلى التربية والتعليم. والكاتب يجعل هذا الاتجاه من صلب مهمته الكتابية، وبخاصة أن الأمة تجتاز فترة عصيبة جداً تستلزم كثيراً من الحيطة والحذر والعمل الدؤوب؛ لتستأنف مسيرتها في الريادة الحضارية إلى الحق والخير والهدى المبين. هذه المرحلة العصيبة تتطلب الكثير من الوعي والعمل للنهوض بالأمة من كبوتها، وإزالة ما علق بها من آثار الرُّقود، وذلك لا يكون إلا عن طريق أبْنائها وبواسطتهم.

ويقيناً أن رجلاً مثل الطنطاوي يحمل في قلبه هماً إسلامياً تنويرياً وفكراً ثاقباً، قد أدرك: أن الحديث في هموم الأمة وتتبع نقاط التحول في مسيرتها إيجاباً أو سلباً وتوجيه أفرادها سواء كانوا في قمة الهرم أو قاعدته، لا يمكن أن يفي به أو يتسع له عمر الإنسان فضلاً عما يكتبه أو ينشره أو يذيعه، لذلك كانت نفسه تنطوي على كثير من الفِكَر المتناثرة (البسيطة) التي لا يضمها موضوع واحد ولا تحتاج في طرحها وتقديمها إلى تحفز أو مشروع (رؤيوي) متكامل، إنما هي ملاحظات ميسورة واستدراكات خفيفة تنبثق عن الواقع وتتوجه نحو السلوك بالدرجة الأولى والفِكْر بالدرجة الثانية.

---

(١) السابق: ٤/٢٤٠.

(٢) السابق: ٥/٤٥ وينظر: ٢/١٣٠ و٥/١٨٤.

ومن هنا يحرص الكاتب على اهتبال المناسبات المختلفة للوعظ والتوجيه ولو بلغ الأمر في بعض الأحايين حدَّ الإثقال على السرد. كما نجده يركز على استخلاص العبر والعظات مما يسوق من أخبار وأحداث تقع له أو لغيره، ويحاكم ما يصدر عنه من أفعال بمقياس الحق والمثال ويُشرك القارئ في الحكم معه، ويُكثِّف الكثير من التجارب في قيمة أخلاقية جامعة يقدمها للقارئ في نهاية المطاف.

ويأتي ضمن هذا السياق حرصه على تقديم الزَّاد المعرفي بشكل مباشر وغير مباشر وبصور شتى أثناء الكتاب، من خلال ما يناقشه أو يثيره من قضايا علمية وفكرية، وما ينثرهُ من تعليقات لغوية مفيدة، أو يشيعه من الاستخدامات الصحيحة، وما يوجه إليه من الآراء والمقترحات، وما يقرره من الآراء والأحكام، ولو أدى به ذلك – وكثيراً ما كان يؤدي به – إلى عدم الإخلاص للفن تماماً؛ فيُخِلَّ بتماسك العمل ونموه واطِّراد تتابعه.

ولقد كان في ذهن الكاتب رغبة قوية في أن يقدم سيرته الذاتية لتكون نبراساً للناشئة، وقدوةً صالحةً، وصفحة عَطِرةً زاهيةً من تاريخ داعية في كل شئونه. دون أن يجني ذلك على عنصر الصدق فيها أو يدعوه إلى أن يتجنب مواطن الضعف. ويؤكد أن السيرة الذاتية – لاسيما بعد موت كاتبها – لا تخدم صاحبها من حيث الشهرة، أو دفع أسباب الاتهام، أو نيل شيء من مجد الدنيا، لأنه في مكان لا يصل إليه من أمجاد الدنيا، ومن زينتها ومن زخرفها شيء، ولكن تكتب مُفَصَّلةً لتكون نبراساً للناشئة وقدوة صالحة لهم[1].

ومن دوافع الذكريات الأخلاقية التي أفصح عنها الكاتب: إذكاء شعور القراء بما يعيشون فيه من النعيم والرفاهية، وما بلغوه من تقدم وارتقاء في سلم الحضارة، لأنه لا يعرف قيمة الرَّخاء إلا من عاش في الشدة، ولا لذة الوجدان إلا من قاسى وجع القلب بالحرمان:

«من عرف كما عرفتُ شظف الماضي حتى القريب منه؛ أدرك كما أدركت عظيم نعمة اللَّه علينا بلين الحاضر ونعومته ورخائه. إنكم هنا في نعمة لا نظير لها،

---

(١) ينظر: السابق: ٣/١٢٨–١٢٩.

فسيحوا في الأرض كلها فلن تجدوا مثلها، واستديموها واستزيدوا منها بشكر اللّه عليها: شكر اللسان، وشكر العمل، وشكر القلب الراضي عن اللّه»[١].

ومنها: أنه أراد أن يربط بها على قلوب الموجوعين، ويخفف بها عن المنكوبين حين يرون ما كابده من وجع وألم وبلاء؛ قد انتهى كأنه لا شيء، ومضى كل ذلك كأنه كان سراباً، وبقيت ذكرى الخلاص منه فرحة يجدها القلب في كل وقت يذكرها فيه، يقول الشيخ:

«ليأخذ المتألمون المعذبون العِبْرة من هذا الذي أقول فما أسرد خيالات، ولا أُلقي مواعظ بل أروي لهم ما وقع لي، وسيأتي على هؤلاء المتألمين المتعذبين بمرض ينغص عليهم عيشتهم، أو فقر ينكد عليهم أيامهم، أو سجن ظالم يُقيِّد أيديهم، ويحرمهم أهلهم وأولادهم، أو عذاب مستمر من جبار آثم يغاديهم به ويماسيهم، سيأتي عليهم يوم يكون فيه هذا كله ذكرى في النَّفس، وحديثاً في المجالس، ومهما اشتد الضيق فالفرج موجود. اقرؤا ما كتب الأُستاذ/ مصطفى أمين عما قاسى في سجنه، وما كتب غيره عما في سجون الظالمين ومعتقلات المجرمين، وها هو ذا قد نجا منها ورجع يكتب والتفاؤل ملء برديه، والأمل يظهر على سن قلمه؛ وإن لم يرَ البائس الفرح في الدنيا، فما الدنيا؟ أيام معدودة وإن الحياة الباقية لهي الحياة الآخرة، وهنالك يُعوَّض المظلوم تعويضاً يرضيه، ويرى الظالم ما قدم لنفسه»[٢].

– أثر الدَّوافع في البناء والأسلوب:

وإذا كان البحث قد أشار في هذا المبحث إلى أن معرفة ما وراء الدوافع مما يعين على تفهم موقف الأديب، وسبب تفضيله لأسلوب دون أسلوب؛ فإنه يُسجل هنا أن هذه الدوافع تركت أثراً واضحاً وعميقاً على ذكريات الطنطاوي، فالتزام الكاتب نشرها عبر بوابة الصحافة جعل الكتاب يتخذ هيئة الحلقات المتجاورات المتسلسلات، التي يتصل بعضها ببعض فتُكَمِّل فيه التالية ما بدأته السابقة، إلا حين يقطع الحديثَ مناسبةٌ من المناسبات أو استطراد خرج إليه الكاتب أو غير ذلك. والدَّافع الأخلاقي والعلمي والتربوي وراء الكتابة جعلها تتجهه إلى الوعظ

---

(١) السابق: ٤/ ٢٤٠.

(٢) السابق: ٣/ ١٤.

والتعليم، واستنطاق الأحداث بالعبرة والقيم الأخلاقية، مما انعكس سلباً على تسلسل الأَحداث وتطور الشخصية ونموها، ولكنه أرضى تصور الكاتب لمهمة الأديب والمثقف في أمته، وقبل ذلك كشف لنا عنه.

أما أثر الرغبة في تسجيل هذه الحياة، والإحساس بقيمتها، والولوع في استرجاع الماضي، والالتذاذ به فقد جاء في صورة بطء شديد في إيقاع الأحداث، وثقل في دورانها، وتمادٍ في الغيبوبة في الماضي، وتَشَبُّثٍ بالدقائق والتفصيلات وحرص على استعادتها وتسجيلها.

أما الرغبة في محاسبة النفس والإحساس بالحاجة إلى البث، واتخاذ الصديق والسمير فيما هو قادم من الأيام لامتداد الزمان، فقد انعكس في صورة: عتاب للنفس، وإكثار من مساءلتها، وتمحيصٍ ما صدَر عنها من أقوالٍ وأفعال، وقرب شديد من القارئ والتصاق بقضاياه خاصةً وعامَّة، وإسقاط لحواجز الكُلْفة، وبناء علاقةٍ قائمة على المودَّة لا على الأَسْتذة والتلمذة، والإرسال الجامد والاستقبال الجامد، حتى يستطيع أن يفضي بمكنونات صدره، ويروي دقائق حياته دون خجلٍ أو وجلٍ أو تهيبٍ من الإدانة. إلى غير ذلك من الآثار التي لا يعجز القارئ البصير أن يربطها بأسبابها عند مطالعة الدراسة الفنية.

رابعاً: تجنيس الذكريات:

لا يخطئ الباحث إذا قال: إن تجنيس ذكريات الطنطاوي إشكالية بحق؛ لأن الدارس سيجد نفسه أمام نصٍّ مفتوحٍ – إذا جاز هذا التعبير – لا يكاد يتقيَّد بتقنية أُسلوبية، أو بقواعد فنية محددة أو منهج واضح ومتزن، بل ينفتح على جميع الاستعمالات اللغوية والأدوات البلاغية تقريباً، وعلى عددٍ من الأشكال الفنية: كما ينفتح ثقافياً ومعرفياً على كثير من العلوم والثقافات والمعارف. فالذكريات تأخذ من المقالة الشكل العام فالوقائع والمواقف في حلقات متصلة تتخذ الشكل المقالي إطاراً عاماً لها، وتفيد من القصة والرواية في: تجسيد الشخصية ومراقبتها، وفي المراوحة بين السرد والحوار، والاستناد إلى عنصر الحكي، الذي يشعر معه القارئ باشتجار الأحداث وجريانها وفق نسق زمني يدور تارة إلى الأمام، وتارة إلى الخلف، وتارة ثالثة يدور دورات عشوائية غير منضبطة. وفي بعض الأحيان ينفلت

الكاتب من التزامه السردي الحكائي فيوقف السرد ليعظ أو يخطب أو يقرر بعض القيم الإسلامية، أو ليصف مكاناً أو شخصية أو ليعالج موضوعاً استطرادياً.

إلا أن الباحث[1] يستطيع أن يصنف الكتاب عموماً تحت مظلة **أدب البحث عن الذات/أدب السيرة**، لأنه يهدف بالدرجة الأولى إلى تسجيل حياة كاتبه ومعرفة ذاته، واستكشافها وتقديمها كما تبدو في ناظريه، وإذا كانت ذكريات الطنطاوي يتنازعها فيه أي: في أدب البحث عن الذّات أكثر من لون أدبي كالذكريات والسيرة الذاتية وما أطلق عليه نظام الفوجا الذاتية (لا مذكرات)، فإنها – في نظر الباحث – تتموضع بين (**السيرة الذاتية**)؛ لحضور الشخصية بقوة في جميع العمل، وبين أدب (**الذكريات**) للحرية الواسعة، التي منحها الطنطاوي نفسه عند الكتابة، ولما شابها من حديث عن (العام) إلى جانب (الخاص)، وللمشاهد والمرائي التي تتداخل بقوة مع عوالم الذات، ثم لهذا الاضطراب العام الذي أفقد الكتاب معنى النظام الدقيق المتسق.

فـ (ذكريات الطنطاوي): فعل لغوي نثري استعادي، تدور أحداثه في الزمن الماضي إجمالاً، أي: أنه ليس تَخَيُّلِيًّا، وإنما يستعيد الكاتب فيه واقعاً حَدَث وانتهى، والمُسْتَعِيْدُ شخص واقعي، هو: الكاتب: (علي الطنطاوي) وموضوع الاستعادة: وجوده الخاص مستعملاً اسمه الصريح في العنوان، وضمير المتكلم في باقي إحالات النص، وإذا كان الكاتب لم يركز في كتابه على حياته الشخصية بل نقل صوراً لمجتمعه، وما شاهده من الأماكن ومن عرفه من العلماء والتلاميذ، فإنه لم يغفل حياته الفردية، ولم يهمل تصوير شخصيته بل ظلت شخصيته هي

---

(١) كنت قد عقدت تمهيداً عرضت فيه لتعريف السيرة الذاتية، والفروق الجوهرية بينها وبين عدد من الأنواع الأدبية التي تلتبس بها في تعبيرات المعاصرين، ولكني أفردته في كتاب مستقل، ويمكن على سبيل الإيجاز أن نذكر تعريفنا التالي للسيرة الذاتية، وهو: **"فعل لغوي، نثري، سردي، استعادي، يقوم به كاتب واقعي، ويركز فيه على شخصيته وحياته الخاصة، بشكل مباشر أو غير مباشر، متوخياً الحق والصدق، شاملاً جوانب شخصيته المختلفة، متتبعاً خطًّا زمنيًّا ممتداً بين مرحلتين متباعدتين يقع بينهما أغلب حياته، وفي الغالب يكون طرفاه مرحلة الطفولة في البداية ووقتاً يسبق أو يزامن مرحلة الكتابة في النهاية"**، (السيرة الذاتية.. الحد والمفهوم، نادي أبها الأدبي، ط١، ٢٠٠٣م).

المهيمنة والموجهة لكل ذلك، والباب الذي تطل علينا من خلاله المعالم والمشاهد والشخصيات الأُخرى.

وقد تحقق فيها عنصرا الشمول والامتداد الزمني. فقد شمل هذا الفعل اللغوي الاستعادي جوانب الشخصية المختلفة فردياً ونفسياً وأُسرياً واجتماعياً وفكرياً وأدبياً وسياسياً... وصورها في حال القوة والضعف والكفاح والتراجع والانتصار والهزيمة، وعرض عدداً من الصحائف والوثائق المقالية، التي تمثل وتقدم الشخصية، وتفصح عن تطورها وتدرُّجها أُسلوباً وفكراً وسلوكاً. وقد رصدت ذكرياته مرحلة واسعةً جداً من حياته، ابتدأت منذ الوعي الساذج بالحياة في مرحلة الطفولة، وله من العمر نحو: خمس سنوات في عام ١٣٣٢هـ – ١٩١٤م واستمرت حتى ليلة ذكرى مولده عام ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م أو حتى منتصف عام ١٤٠٨هـ بالنظر إلى الحلقات التي نشرت في الجريدة فعلاً وباشرت سرد وقائع وأحداث حياته.

هذا بالنسبة لتصور الباحث وفقاً للمفهوم الذي طرحه آنفاً؛ أما بالنسبة **لموقف الكاتب** مما يكتبه وتصنيفه له ضمن فَنٍّ من الفنون – وهي مسألة في غاية الأهمية بل إن بعض الباحثين يذهبون إلى أن تصنيف الكاتب لما يكتبه، وموقفه منه هو الخطوة الأولى إلى تحديد العمل وإعطائه كيانه – فالذي يظهر للباحث أن الطنطاوي وعى تماماً أنه كان يكتب سيرة ذاتية، وقد سمّى كتابه هذا في معارض مختلفة من الكتاب بـ (**قصة حياتي**)[١]، و(**أحداث حياتي**)[٢] و(**السيرة الشخصية**)[٣]، ولكنها تختلف عن السيرة الذاتية ذات الرؤية الواحدة، والنظام المطرد.

وما اختيار مصطلح (**ذكريات**) وتسمية الكتاب به؛ إلا تأكيد على وعي الطنطاوي بهذا الاختلاف، فهو من قبيل إشعار القارئ بأن الكتاب يعتمد باستعادة ما فيه على الذاكرة، إذ ليس لديه مذكرات مباشرة ولا يوميات دورية كُتبت في

---

(١) الذكريات: ١٢/١، ٦٦.

(٢) السابق: ٣٥/٥.

(٣) السابق: ٩٧/٦–٩٨.

حينها، وَوَثَّق بها الوقائع والأحداث، ورصد فيها مشاعره وانفعالاته، أي: أنه استعملها باعتبارها جمعاً للمفرد (ذكرى) والذكرى واحدةُ ما يتذكر[١]. وهناك سببٌ ثانٍ قاده إلى استعمال لفظة (ذكريات) وهو اتساعها لصور هائلة غير محصورة لما وقع في الماضي، سواء أكان يدخل تحت التجربة الخاصة بمعناها الخاص، أم لا يدخل تحتها إلا بمعناها العام. والاتساع في العنوان يهيئ للكاتب السير على منهجه الفضفاض الذي سلكه في سرد سيرته، ويتوافق من جهة رابعة مع إمكاناته وظروفه النفسية والذهنية والمرحلة العمرية التي بدأ كتابتها فيها.

وقد ذكر لي الطنطاوي أن معرفته بفن السيرة واسعة جِداً، وأن هذه المعرفة مبنية على قراءات كثيرة في هذا الفن، والأشكال الأدبية الأخرى التي تتصل به، وأنه لا يعرف سيرة أدبية نشرت على امتداد الوطن العربي – لاسيما مصر والعراق وبلاد الشام والخليج العربي – لأديب معروف إلا وقد قَرأها أو قُرئت عليه. ولكنه يعترف بأن شيخوخته حالت بينه وبين متابعة الجديد مما يصدر في المكتبات ودور النشر، واكتفى بقراءة ما يقع تحت يديه منها بالإقبال نفسه الذي يعرفه من نفسه في شبابه[٢].

وفي ذكرياته يشير إشارات قارئ مستوعب إلى عدد من طرائق كتابة السيرة، وأشهر كتابها مثل: طه حسين، وأحمد أمين، والعقاد، وأميل لودفيغ، وأندريه موروا، وأدورد دوق وندرسون[٣].

وفي المقابل يؤكد أنه قد نحا بذكرياته / سيرته منحىً آخر، ولم يسر بها سيرة أيٍّ من كُتَّاب السير:

«لقد جاءت على نمط عجيب ما سرت فيها على الطريق المعروف، ولا اتبعت فيها الأسلوب المألوف فلم تأتِ مرتبة مع السنين، ولا مقسمة مع الأحداث ولا كانت تستقيم دائماً على الجادة بل تذهب يميناً وشمالاً»[٤].

---

(١) ينظر: السابق: ٢٠٩/٤ و٣٥٣/٨.

(٢) مقابلة مع الشيخ علي طنطاوي بتاريخ الخميس: ٢٥ / ٥ / ١٤١٦هـ (منزله – جدّة).

(٣) ينظر: الذكريات: ٧٠/٥ و٢٣٣/٦ و٥٩/٨–٦٠.

(٤) السابق: ٣٣٧/٨، وينظر: ٢٣٣/٦، ويراجع مبحث الزمان في الفصل الأول من هذه الدراسة.

والآن نستطيع أن ننتقل إلى الدراسة الفنية لنقف على أبرز خصائص الكتاب الفنية والأدبية، بعد أن عرفنا قصة الكتاب وقيمته والبواعث إلى تأليفه، والجنس الأدبي الذي ينتمي إليه.

obeikandl.com